الأخلاق

المشكلة الأخلاقية

الأخلاقيات تاج مذهب الفيلسوف . وقديماً جعل أفلاطون الخير مثال المثل، وكانت محاضراته فى الخير أروع ما سمعه تلاميذه . وظل كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس دستور الحياة الفاضلة الذى اتبعه المشاءون من أتباع أرسطو ،وأثر فى علم الأخلاق عند فلاسفة المسلمين أثراً كبيراً . ودارت فلسفة الأبيقوريين والرواقيين حول الأخلاق . وعلى الجملة ورثت الفلسفة النظريات الأخلاقية عن اليونان وسرت خلال العصر الوسيط فى الشرق والغرب على حد سواء ، وهى فى أساسها ترفع من شأن الحياة الروحية وتحط من منزلة الجسد ، وتفرض معايير أخلاقية تعد مثلا عليا ينبغى على الإنسان أن يتسامى إليها . وأن سعادة المرء فى تصفية النفس وتزكية العقل وفى حياة التأمل فى العمل الخارجى . حقا لم تحتقر الأبيقورية اللذة ، ولكنها طلبت اللذة الحاضرة . فالخير عندهم فردى . أما أصحاب المنفعة من فلاسفة المدرسة الإنجليزية فقد جعلوا الخير والشر فى المتعة الحسية . وأنزلوا الأخلاق من سموها إلى مرتبة دنيوية، ولكن حساب الخير عندهم يتعلق بالمستقبل ، فهو خارج عن الخبرة الحاضرة . أما الأخلاق عند كانط وفى الفلسفة الألمانية فإنها تقوم على الواجب الذى يفرض فرضاً على الفرد وينبغى أن يخضع له دون شذوذ . فهى أخلاق مثالية تذكر بالأخلاق اليونانية القديمة .

وتختلف الأخلاقيات عند ديوى عن سائر تلك النظريات .

فهى أولا أخلاق إنسانية تنبع من صميم الحياة التى نعيشها على ظهر هذه الأرض ،وليست أخلاقاً متعالية تفرض على الإنسان فرضاً .

وهى ثانياً أخلاق اجتماعية لا تحصر السيرة الفاضلة فى داخل الفرد بينه وبين نفسه ، ولا تنبع من الذات ، أو النفس ، أو الضمير ، أو العقل .

وهى ثالثاً أخلاق يمكن بحثها علمياً كما تبحث سائر العلوم الطبيعية ،

ويمكن ضبطها وتوجيهها كما تضبط العلوم .

وقد بدأ تفكير ديوى فى الأخلاق فى وقت مبكر صاحب تكوين نظريته فى التربية . وأصدر سنة ١٩٠٨ مع الأستاذ تافتس كتاب « الأخلاق » الذى يحمل بذور مذهبه الأخلاقى . وينقسم الكتاب ثلاثة أقسام : الأول عرض تاريخى للمذاهب الأخلاقية ، والثانى تأويلات نظرية ، والثالث أبرز المشكلات الاجتماعية والاقتصادية المميزة للعصر الحاضر . وقد أفاد المنهج التاريخى فى وضع المشكلة الأخلاقية فى مكانها من الحضارة التى نشأت بين أحضانها ، كما يسر علاج المشكلة علاجاً موضوعياً . ويترتب على ذلك أن المشكلة الأخلاقية فى العصر الحاضر إذا شئنا فهمها وحلها فينبغى أن توضع فى إطار الحضارة الراهنة وما تقوم عليه من نظم اقتصادية واجتماعية وثقافية . وأهم ظاهرة يمتاز بها العصر الحاضر هو تقدم العلوم الطبيعية ، وتغير الحياة الاقتصادية والاجتماعية مما يقتضى تغير القواعد الأخلاقية تبعاً لذلك .

ولا تظهر المشكلة الأخلاقية إلا حين يتعرض الإنسان لموقف تتعارض فيه الغايات ، ويحار المرء أيها يختار وأى الوسائل يتبعها لتحقيق ما يختاره من الغايات . أما حين يذعن المرء لغاية واحدة دون اعتبار للغايات الأخرى ، فلا يسمى المسلك عندئذ أخلاقياً . إنه كما يقول ديوى : « مسلك فنى أكثر منه أمراً أخلاقياً . إنه ذوق ومهارة ، وإيثار شخصى ، وحكمة عملية ، أو مسألة اقتصاد ومناسبة . فهناك طرق مختلفة كثيرة تؤدى إلى نتائج كثيرة ، وإيثار هذا الطريق دون ذاك على أساس أن أى واحد منهما يؤدى بالفعل إلى الغاية ، أمر فكرى أو جمالى أو عملى أكثر منه أمراً أخلاقياً . فقد يحصل أن أوثر منظراً بحرياً على منظر جبلى ، وهذا ضرب من الاهتمام الجمالى . وقد أرغب فى استخدام وقت المشى للتفكير وأجد الطريق الزراعى أبعد عن التلهى ، وهذا أمر يرجع إلى الاقتصاد الفكرى . أو أرى من الأفضل التريض بالذهاب إلى مجرى الماء ، وهذه مسألة حكمة أو لياقة أو حكمة عملية . دع أى غاية من هذه الغايات الجمالية أو الفكرية أو

الصحية تقوم وحدها تجد أنها صالحة وفى موضعها . ولكن المشكلة الأخلاقية لا تظهر »[1] .

وإنما تظهر المشكلة الأخلاقية حين تتعارض قيمة غاية مع قيمة غاية أخرى، وحين نشعر بهذا التعارض شعوراً يستدعى ضروباً مختلفة من الاهتمام والإيثار، وصراعاً فى الميول والأفعال، وعندئذ يوجد حقاً « الموقف الأخلاقى ». وهذا يستدعى إيثار غاية على أخرى، وتصبح المشكلة مشكلة قيمة . ما هى طبيعة القيم والمرغوب فيه، وما لابد للفرد منا أن يحكم به . هذه هى فى جوهرها المشكلة الأخلاقية . السلوك الذى يتجه نحو الأجدر طبقاً لأحكام قيمية حيث تكون القيم موضع النظر متعارضة تعارضاً يحتاج إلى نظر وإيثار .

وقد نحل هذا الموقف طبقا لما تمليه علينا الدوافع الحيوانية ، وعندئذ لا يكون الحل أخلاقيًّا ، ولا يسمى صاحبه رجلا فاضلا . وإنما الرجل الفاضل هو الذى ينظر فى « الميزان » الذى يزن به الأعمال أحسنة هى أم قبيحة ، ولا يكفى أن يكون سلوكه موافقاً لميزان معروف ، بل لا بد من امتحان هذه الموازين . ونحن نسمى الرجل فاضلا حين يتحلى بالفضائل الذهبية المشهورة وهى الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة . وينظر ديوى إلى هذه الأربعة من وجهة مذهبه ، أى من جهة الموقف الأخلاقى ، فهى كلها مظاهر مختلفة لموقف واحد كلى ، وفى الوقت نفسه ليست أى فضيلة قائمة بذاتها ، بل هى مناهج تتجه بالمرء نحو السلوك ، فصاحب القلب الصادق والاهتمام الشامل يتصف بالعدالة والمحبة ، وصاحب النشاط الدائم يتصف بالشجاعة والعزم والقوة ، ومن يهتم بالخير كان حكيما ، والعفة طلب اللذة غير ممتزجة بشىء آخر . فهى فضائل تتصل بالطريقة أكثر مما تتعلق بالموضوع[2] .

الأخلاق والبيئة الاجتماعية

ثم أصدر ديوى بعد الحرب الكبرى الأولى عدة كتب تمثل مرحلة جديدة

---

(١) Ethics, p. 206.

(٢) in Schilpp, Henry Stuart, Dewey's Ethical Theory, p. 312-314.

من مراحل تطوره ، منها كتاب « تجديد فى الفلسفة » عقد فيه فصلا عن التجديد فى الأخلاق ، وطالب فيه بالرجوع إلى المواقف الفعلية الفردية لا إلى سلطة عليا عند النظر فى الأخلاق ، لأن كل موقف أخلاق فذ فى بابه . وكل خير فهو خاص بموقف معين ، فلا « مناص من العمل على استكشاف الخير اللازم لهذا الموقف المعين وإبرازه والحصول عليه على أساس ذلك النقص الذى يراد سده ، ومصدر الشر الذى يراد علاجه »[1] .

وطالب بعدم الفصل بين ما هو طبيعى وما هو أخلاقى ، إذ من الممكن أن يطبق المنطق التجريبى على الأخلاق كما يطبق على العلوم الطبيعية . « وإذا ما طبق المنطق التجريبى على الأمور الأخلاقية جعل خيرية كل صفة يقال عنها إنها خير تقدر بحسب ما تؤدى إليه من تحسن فى أحوال الأدواء والشرور التى يعانيها الناس فى الوقت الحاضر »[2] .

وطالب بأن يكون النمو هو الغاية التى ننشدها من الأخلاق ، والمقصود من النمو التحسن والتقدم . لا تكون « الصحة » مثلا من حيث هى غاية ثانية مقررة تقريراً نهائيًّا هى الخير والهدف ، بل الخير والهدف هما التحسن المنشود فى الصحة ، وهو عملية متصلة مستمرة .

وطالب بتهذيب الأخلاق عن طريق التربية ، لأن عملية التربية والعملية الأخلاقية شىء واحد .

وفى سنة ١٩٢٢ أصدر كتاب « الطبيعة البشرية والسلوك » وجعل له عنواناً فرعيًّا هو « مقدمة إلى علم النفس الاجتماعى » . نظر فيه إلى الأخلاق من جهة الصلة بين الطبيعة البشرية وبين البيئة .

فقد درج الناس على النظر إلى الطبيعة البشرية بعين الشك والخوف والشر ، وذهبوا إلى أن مهمة الأخلاق تهذيبها وتعديلها والسمو بها . وورث الناس منذ القدم الأسطورة القائلة بأن الطبيعة البشرية شر ، وأن واجب الأخلاق كبح

---

(١) تجديد فى الفلسفة ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٨٤ .

obeikandi.com

جماحها ، وضبطها ، والرقابة عليها . وكثيراً ما تثور الطبيعة البشرية فلا تستسلم بسهولة للانقياد ، بل تقاوم ، ولا تخضع للسيطرة . وفرضت قواعد غريبة عن هذه الطبيعة ، مع أن غاياتها وتنظيماتها ليست فى الواقع إلا ثمرة للطبيعة البشرية . حقاً ظهر بعض المفكرين فى القرن الثامن عشر أمثال روسو ، وذهبوا إلى أن الإنسان خير بالطبع ، وأنه ولد حراً ولكنه منذ أن يولد يقيد بالأغلال فى كل مكان، إلا أن مذهبه يجعل الفرد مستقلا بنفسه منعزلا عن غيره[١]، مما يخالف مذهب ديوى الذى يجعل الفرد فى أساسه اجتماعياً ، ويجعل الأخلاق اجتماعية.

هذه القواعد الأخلاقية التى تتسامى عن الطبيعة البشرية وتحط من شأنها وتتجاهلها إما أن يكون مصيرها الانتحار ، وإما أن تدخل مع هذه الطبيعة فى صراع مستمر .

ونحن إذا رجعنا إلى مصدر الضوابط الأخلاقية رأينا أنها ترجع إلى الآباء والكهنة والرؤساء والحكام يفرضونها فرضاً على الصغار والعامة ، حتى يضمنوا طاعة الصبيان وخضوع العامة . فالطفل الحسن الخلق هو الذى لا يكون مصدر متاعب لآبائه ، فإذا كانت فيه شقاوة كانت طبيعته شريرة ، أو كما يقول المثل العامى عندنا « راكبه عفريت » . والطيبون من الناس هم الذين ينفذون ما يؤمرون به ، فإن تمردوا كان ذلك دليلا على عيب فى طبيعتهم .

واتخذ أصحاب السلطان من قواعد الأخلاق عاملا من عوامل السيطرة على الطبقات، وانقسمت الطبقات الاجتماعية منازل ، إلى سادة وعبيد . ورضى العامة بالخضوع لهذه الأخلاق لجهلهم بالطبيعة البشرية وكان ذلك علة فى ازدرائهم لها . أضف إلى ذلك الجهل بالأمور الطبيعية والحيوية . وحين هوت السلطة الاجتماعية التى كانت تقبض على مقاليد الأمور صحب ذلك اهتمام بالنظر فى أحوال الإنسان نظراً علمياً ومعرفة القوى التى تدفعه إلى السلوك. غير أن علمنا بالنفس الإنسانية لا يزال بالنسبة إلى ما بلغته العلوم الطبيعية من تقدم فى طور أولى . وحين يتقدم

---

(١) Ethics, p. 221.

علم النفس وعلم الاجتماع ويبلغان مرتبة علمية شبيهة بما انتهت إليه العلوم الطبيعية، فلا ريب أن يصحب ذلك تغير جوهرى فى علم الأخلاق لارتباطه ارتباطاً وثيقاً بالطبيعة البشرية .

وقد كان لمذهب التطور أثر عظيم على الأخلاق ، غير أن تفسير هذا المذهب فى ضوء الأفكار القديمة انحرف به عن جادة الصواب ، إذ ظن بعض المفكرين أن مذهب التطور يعنى إخضاع التغير الحاضر إخضاعاً كاملا لهدف مستقبل . وحقيقة المذهب أنه يعنى اتصال التغير ، وأن هذا التغير قد يتخذ صورة النمو الحاضر بما فيه من تعقيد وتفاعل. وهناك مراحل تتقلب على التغير ، ولكن أعظمها أثراً ودلالة ليست تلك المراحل التى تقف عند حد الثبات ، بل فى تلك الأزمات التى تنهار فيها المراحل الثابتة بحكم العادة لتفسح المجال لقوى جديدة لم يسبق لها العمل أى فى أوقات التجديد والتحول إلى تيار جديد . وتتصل فكرة التطور بالنمو المتصل ، وبالتقدم . والفلسفة التى تأخذ بالتقدم تدين فى الوقت نفسه بالتفاؤل ، والتفاؤل يفسح المجال للأمل ، ويفتح آفاقاً جديدة ، ويخلق أهدافاً جديدة ، ويبعث النشاط فى جهود جديدة[1] .

إن ثبات الأهداف التى نسعى إليها يفضى إلى فقدان الأمل حين نصل إلى الهدف ، وإلى تثبيط الهمة والقعود عن العمل . والأخلاق ثمرة العمل ، والإنسان باعتبار أنه كائن طبيعى كغيره من الكائنات ينمو ويتطور ويتقدم ويتغير . ولكن هناك فرقاً بين ما هو طبيعى وما هو أخلاقى . فالطبيعى يتعلق بما حدث وكيف حدث . والتغيير الذى يحدث للأمور الطبيعية يتم بتغيير الظروف المحيطة بها . وكذلك الحال فى الأمور الأخلاقية ، لكنها تتعلق بالمستقبل لا بما حدث فى الماضى . والمشكلة الأخلاقية تقوم فى كيفية تعديل الظروف التى تؤثر الآن فى النتائج المستقبلة . وإذا شئنا أن نغير خلق شخص ما أو نحول إرادته ، فعلينا

---

(١) Human Nature and Conduct, pp. 284-288.

أن نبدل الظروف الموضوعية التى تتدخل فى تكوين عاداته وخلقه[١]. وبهذا يمكن أن تصبح الأخلاق علمية ما دامت تخضع لقياس موضوعى حين نقيس هذه الظروف الموضوعية ، وما دمنا نستطيع تغييرها كما نصنع الظواهر الطبيعية ونركبها .

وبهذا تصبح الأخلاق هى وسائل ضروب الميادين الأخرى التى خضعت للمعرفة العلمية طبيعية ، فلا يعيش الناس فى عالمين منفصلين أحدهما العالم المثالى الأخلاقى والآخر العالم الواقعى الطبيعى . وقد أدى ذلك الانفصال إلى نتائج كثيرة على رأسها النفاق والرضا . أما الرضا فهو الوقوف من العمل موقفاً سلبيًّا ، ويصحبه أخلاق سلبية ، أبرز صورها الستر ، والستر اختفاء الأضواء عن الشخص فلا يقع عليه لوم من المجتمع مما يدل على أنه لم يرتكب وزراً ، أو يفعل شرًّا . وأيسر سبيل إلى تجنب اللوم أن يفعل المرء كما يفعل معظم الناس ، وما تعارفوا عليه . وأخلاق العرف زاخرة بالمساوئ ، وتدفع إلى ضرب من التوافق لا يحس فيه المرء بطعم الأعمال الأخلاقية بمعنى الكلمة . أو قل إن أعماله لا أخلاقية ما دامت شخصيته لم تظهر على مسرح العمل بشكل إيجابى . أما الذين لا تطاوعهم طبيعتهم على الرضا والتسليم والموافقة ، فإنهم يتوافقون فى العلانية ، ويزهدون أمام الناس ، ويتظاهرون بالتقوى والصلاح ، ثم يعوضون الزهد بالانغماس فى اللذات والشهوات إلى حد يبلغ الانحراف ، وهذا هو النفاق .

من طبيعة الإنسان أن يحل مواقفه على أى نحو ليتيسر له العيش فى هذه الحياة . ولا بد له أن يحكم على أفعاله وأن يهتدى فى سلوكه بما يعتقد أنه « الخير » أى بما هو أفضل ، بعد التمييز بين الحسن والقبيح . وكانت معظم الأخلاقيات القديمة إما أخلاقيات هروب من عالم الواقع إلى عالم المثال ، فيتعذب بعض الناس من هذا التعارض ويعجزون عن التوفيق بينهما ، وينافق البعض الآخر فيتظاهرون بالفضيلة المثالية وينغمسون بينهم وبين أنفسهم فى الرذائل ، ويعيش

---

(١) المرجع السابق ص ١٩ .

البعض الثالث فى عالم من الزهد ويهتمون بتنقية أنفسهم وتصفيتها ويهملون بذلك الحياة الدنيا . وإما أخلاقيات لذة وانغماس فى عالم الواقع ، ويزعمون أن حرية المرء فى تحقيق شهواته . على الجملة اتجهت الأخلاق نحو حياة باطنة داخلية ، وقطعت الصلة بالخارج ، ونظرت إلى النية، وإلى حرية الإرادة ، وإلى نقد الضمير . ومن ثم قامت المباحث الميتافيزيقية حول طبيعة الحرية والسبل المؤدية إلى تحقيقها ، وهذا نتيجة الفصل فى الأخلاق إلى عالمين ، وإلى دفع الأخلاق نحو حياة باطنة بدلا من ظهورها فى ضوء النهار . وليست الحرية أمراً متصلا بالأخلاق على النحو الذى يذهبون إليه، بل فى الفكر والاجتماع والسياسة والاقتصاد والدين . وعندئذ يجد الإنسان نفسه فى عالم مفتوح لا محصوراً فى مجال الضمير .

وقد ظهرت مدرستان للإصلاح الاجتماعى إحداهما تقول بأن الأخلاق تنبع من الباطن ، وأننا إذا شئنا تغيير النظم الإنسانية فيجب أن نعتمد على تطهير النفس وتصفية القلب . والأخرى تقول بأن الإنسان ثمرة البيئة ، وأن تغيير النظم يؤدى إلى تغيير الطبيعة الإنسانية . أما مذهب ديوى فيقول بأن السلوك تفاعل بين الإنسان والبيئة، بين ما هو طبيعى وما هو اجتماعى . فهناك قوى داخل الإنسان وقوى خارجية عنه ، والخير فى التلاؤم البصير بين الجانبين. والمقصود بالتلاؤم البصير تدخل الروية deliberation فى توجيه السلوك .

وليست الروية حساب الأفعال من جهة ما تؤدى إليه من مكسب وخسارة فى المستقبل كما يزعم أصحاب مذهب المنفعة. « ومن الواضح تباين هذه الفكرة مع الواقع . إذ ليست وظيفة الروية أن تؤدى إلى الفعل بإبراز أقصى نفع يمكن الحصول عليه، بل وظيفتها حل مشكلات العمل الراهن. وأن تعيد إليه الاتصال، وترد له الانسجام ، وأن تستخدم الدوافع الضائعة وتوجه العادات نحو الطريق الصحيح . ولتحقيق هذه الغاية تنقطع الروية إلى ملاحظة الشروط الراهنة وتذكر المواقف السابقة . تبدأ الروية من موقف مضطرب وتنتهى باختيار مسلك للعمل

تشق طريقها فيه . . . »[١]

ويستمر ديوى فى نقد النظرية الحسابية calculative theory فى الأخلاق ، وبخاصة فى الروية ، ويرد الأمر إلى الاستجابة الطبيعية للبيئة فيقول: « أول حقيقة أن الإنسان كائن يستجيب فى أفعاله لمؤثرات البيئة ، وتتعقد هذه الحقيقة عند الروية ولكنها لا تلق بكل تأكيد . ونحن نستمر فى الاستجابة للشيء يعرض فى الخيال كما نستجيب للأشياء التى تعرض للمشاهدة . والوليد لا يتحرك نحو ثدى أمه بسبب ترجيح حساب مزايا الدفء والغذاء على آلام المجهود . ولا يبحث المعدم عن الذهب ، أو يسعى المهندس لرسم الخطط أو الطبيب لبلوغ الشفاء بسبب حساب المزايا والمساوئ »

الروية نظر فى الحاضر للبحث فى أحسن الطرق التى يسلكها المرء ، وهذا النظر فى الحاضر يؤدى بلا ريب إلى نتائج فى المستقبل . والنظر فى الأحسن ، والأفضل ، والأجدر ، والأليق ، والأوفق ، وما شئت من صيغ التفضيل ، يحتاج إلى حكم على قيمة . وبذلك ترتد نظرية ديوى الأخلاقية ، وجوهرها الروية والاختيار فى المواقف المعقدة العملية ، إلى نظرية فى القيمة ، لا من حيث إنها استجابة لرغبات شخصية ، بل من جهة أنها أحكام موضوعية يمكن أن ترتفع إلى مرتبة الأحكام العلمية . ويصوغ قضيته عن القيمة فيما يلى : « أحكام القيمة أحكام عن شروط موضوعات الخبرة ونتائجها ؛ أحكام عما ينبغى أن ينظم تكوين رغباتنا وعواطفنا وملذاتنا »[٢] .

فالأفعال التى نروِّى فيها ، أو السلوك الذى يتدخل فيه الاختيار التأملى ، هو الأخلاق بمعنى الكلمة ، إذ عندئذ نستعرض الأحسن والأقبح . وعندما نفكر فى الحسن والقبيح ، والأحسن والأقبح ، فنحن ننشد « الخير » ، والأحسن the better ليس أفضل من الخير the good ، وإنما الأحسن هو

---

(١) Hunran Nature and Conduct, pp. 199-200.

(٢) Quest For Certainty, p. 252.

الخير الذى نكشف عنه . والفاضل والأفضل طريقان للعمل الإيجابى عندما نواجه موقفاً نحار فى حله . والأقبح أو الشر خير منبوذ ، وإلى أن ننبذه فهو خير ينافس خيراً آخر . وبعد أن ننبذه لا يبرز كخير أقل من خير ، بل كأسوأ جانب فى الموقف[١] .

بعبارة أخرى ليس ثمة خير مطلق ، ولا شر مطلق ، بل هناك مواقف ، وكل موقف يمتاز بخيرية لا تشبه أى موقف آخر ، إذ لا يوجد خير يعد نسخة طبق الأصل من خير آخر . « فالخير فريد فى الطريقة نفسها التى يعرض بها ، لأنه العزم على حل موقف متميز معقد تتنافس فيه العادات والدوافع ، تنافساً لا يتكرر أبداً بشكل واحد وإنما يمكن أن يتكرر الخير نفسه مرتين بالعادة الجامدة التى تبلغ حد الثبات . وفى مثل هذا الروتين الجامد لا يوجد شعور ألبتة لا بالخير ولا بالشر »[٢] .

إننا نعيش فى عالم متحرك ، متغير ، لا تتلاءم معه العادات الجامدة . تغيرت النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ؛ وأصبح التصنيع القائم على النتائج العلمية وسيلة تحسين الأحوال المعيشية ، فلم يعد يصلح أن يفكر المرء فى ضوء العادات المتوارثة أو العرف السائد ، بل لا بد له أن يستخدم عقله وتفكيره فى إجراء هذا التطور والتقدم والتحسين والنمو . فالحضارة الراهنة ثمرة العلم الحديث ، وهو نتيجة استخدام العقل فى معرفة الطبيعة والسيطرة عليها . والعلم نفسه إنسانى ، [illegible] . لأن العالم يختار الوقائع ويحدد الملاحظات والتجارب ويؤثر [illegible] على آخر . ويوجه البحث العلمى كله وجهة خاصة يستفيد منها . والأمر [illegible] فى الضمير الإنسانى . وهو محور الأخلاق ، فإنه ينشأ فى الحضارة الراهنة انعكاساً للنظم الخارجية فى داخل الفرد . فمنذ نشأة الطفل يتعرف ويستجيب

[illegible]
Human N[illegible]

obeikandl.com

لما عليه أهله والمجتمع الذى يعيش فيه، يشجعونه بالاستحسان و يثبطونه بالاستهجان وكلما نما وجد أحكاماً من المجتمع على أعماله ، هذا حسن وهذا قبيح . فالأصل فى الاستحسان والاستقباح هى الأعمال التى تعرض على المجتمع . وفى استطاعتنا أن نتنبأ بما سوف يفعله غيرنا . « وهذا التنبؤ هو بداية الحكم على العمل . فنحن نعرف "معهم"، وهذا دليل وجود الضمير ، كأن مجلساً قد انعقد فى داخل صدورنا لمناقشة الأفعال المقترحة والمؤداة واستحسانها أو استهجانها ، و بذلك ينتقل المجتمع الموجود فى الخارج ليصبح محكمة تُنْصَب فى قلوبنا »[١] .

بهذا التفسير الذى يرد فيه ديوى أصل الضمير إلى المجتمع يجعل الأخلاق اجتماعية . فاللياقة بداية المسئولية ، إذ نحاسب من غيرنا على نتائج أفعالنا، لأنهم يطبقون ما يحبونه ويبغضونه من هذه النتائج علينا . ويعد المجتمع الفرد مسئولا عما فعله ليكون مسئولا عما سوف يفعله . وحيث كانت الأحكام الأخلاقية والمسئولية الأخلاقية ناشئين من البيئة الاجتماعية فهذا دليل على أن جميع الأخلاق اجتماعية . ويكفى فى بيان ذلك أن ننظر فى أثر العرف على العادة ، وفى أثر العادة على الفكر .

ولما كانت الأخلاق متحققة فى المواقف والأعمال ، وكانت أعمال المرء غير منعزلة عن المجتمع . كانت علاقاته مع غيره من الناس بالتعاون وإياهم عظيمة الأثر فى إتاحة فرص العمل والوسائل التى ننتهز بها هذه الفرص . خذ مثلا طلب المال والظفر بالقوة الاقتصادية والسعى وراءهما تجد أن المال نظام اجتماعى ، والملك عرفٌ قانونى ؛ والفرص الاقتصادية تعتمد على حالة المجتمع ، والأشياء التى نطلبها والثمرات التى نحصل عليها إنما هى كذلك بسبب ما يضفيه عليها المجتمع من مدح ومنزلة ومنافسة وسلطان . وإذا كان من المشهور أن طلب المال شر فذلك بسبب الطريقة التى نعالج بها هذه الأمور الاجتماعية لا بسبب أن جامع المال قد انفصل عن المجتمع وأصبح ذاتاً مستقلة عنه .

---

(١) Human Nature, p. 315.

فالأخلاق ظاهرة اجتماعية ، وهى من باب الواقع لا من باب ما « ينبغى أن يكون »[١] . ويترتب على هذا المبدأ أننا إذا شئنا تحسين الأخلاق فعلينا أن نعدل النظم الاجتماعية وأن نحسن تربية الفرد . وفى ذلك يقول ديوى : « إذا كانت موازين الأخلاق منحطة فذلك ناشئ من نقص التربية التى يتلقاها الفرد فى تفاعله مع بيئته الاجتماعية »[٢] .

لقد بدأنا بالكلام عن ديوى المربى ، الذى يجعل الفلسفة مذهباً فى التربية ، وانتهى بنا الأمر إلى الكلام عن ديوى الأخلاقى الذى يجعل الخير وهو غاية ما ما يسعى إليه الإنسان وتاج الفلسفة كلها ثمرةً من ثمارها .

وكنا نود أن نفرد لديوى العالم النفسى ، والفيلسوف الدينى ، والجمالى ، والاجتماعى . . . فصولا برأسها ، لولا ضيق المقام ، فرأينا أن تقتصر الخاتمة على خلاصة رأيه فى الدين وفى الفن والجمال .

---

(١) Human Nature, p. 319.

(٢) المرجع السابق ، فى الصفحة نفسها .

خاتمة

نحسب أن أحداً من الفلاسفة لم يلق من التقدير فى أثناء حياته ما لقى جون ديوى ، الذى حين احتفل بمرور سبعين عاماً على مولده احتشدت الأقلام تلقى الأضواء على فلسفته . وكذلك حين احتفل به وهو فى سن التسعين ، كتب أحد تلاميذه يقدم نصوصاً مختارة من مؤلفاته هو الأستاذ أروين إدمان ، فتحدث عنه حديث الطالب الذى تلقى عليه العلم يقول : إنه كان فى قاعة البحث Seminar ومعه براند بلانشارد فيلسوف ييل . وألبرت بارنس صاحب كتاب « الفن فى التصوير » ذلك الكتاب الذى ينم فى كل صفحة من صفحاته عن أثر ديوى ، وغيرهم يحسون فى ديوى « المعلم الصحيح ، المعلم الذى لا يلقى بالنظريات الدجماطيقية ، بل يساعد طلبته بالتعاون وإياهم على إخراج فروض جديدة وآراء جديدة وتنظيمها . كان ديوى آيةً فى الأخذ بيد طلبته فى طريق التفكير المستقل » . إنه إذن صاحب مدرسة وتلاميذ ، وهم السبب فى ذيوع صيته وخلود ذكره ، واستمرار مذهبه (١) .

ولم يكن ديوى صاحب مذهب مغلق بمقدار ما كان صاحب منهج يفتح له الآفاق ، ويشق الطريق فى عالم التغير . وترجع صعوبة فلسفته إلى محاولته استخلاص الحقيقة من براثن هذا التغير الدائم والجريان المتصل . وقديما وُصِف هرقليطس بأنه « الغامض » لأنه فهم حقيقة العالم أنها التغير المتصل ، فلم يفهم

---

(١) يرجع الأستاذ جون باتل فى كتابه عن الأسس الميتافيزيقه لفلسفة جون ديوى ص ١١٨ ذيوع مذهبه إلى أمور ثلاثة هى :

١ — أن فلاسفة مثل وليم جيمس لم يخلفوا أتباعاً ، ولكن ديوى خلف تلاميذ كثيرين من أنصار المذهب الطبيعى والأداتى يشغلون مناصب التدريس بالجامعات .

٢ — أن ديوى هو لسان المعلمين الناطق ، الذين يعدونه معلم المعلمين .

٣ — أنه ظل يكتب ويدافع عن فلسفته فترة طويلة من الزمن مما جعل مذهبه حياً .

مذهبه على حقيقته أحد فى زمانه . ولعل أصدق وصف يمكن أن يخلع على جون ديوى هو ذلك اللقب القديم الذى التصق بهرقليطس أى « الغامض » . فهو غامض فى تفكيره ، لأنه يغوص فى أعماق الفكر ويحس « بالخبرة » ولكن يصعب عليه أن يلبسها ثوباً من الألفاظ. ومن أجل ذلك استحدث مصطلحات جديدة، وكان يعدل عن بعضها إلى غيرها كلما تطور فى التفكير . وفى ذلك يقول جون هرمان راندال ، أحد تلاميذه البارزين : « الذين لا يحبون جون ديوى قد وجدوا جميعاً الحقيقة . . . أما ديوى فلم يجد الحقيقة. . . إنه لا يزال يبحث، يبحث عن حكمة أعظم . وهو يسمى هذا البحث " التجريبية "، وله ثقة عظيمة فى العلماء ومناهجهم لأنهم يبحثون كذلك عن حقائق أكثر . ولقد أحس ديوى أخيراً أن المحترفين من الفلاسفة لم يحسنوا فهم تصوره عن " الخبرة " ، ورأى أنه من الأفضل أن يستبدل بها مصطلحاً آخر يستعيره من علماء الأنثروبولوجيا وهو الثقافة culture » [١] .

ومن أجل ذلك كتب عن الحرية والثقافة مبيناً منزلة الحرية فى الحضارة . ليس الإنسان فرداً منعزلا ولكنه عضو فى بيئة حضارية يتأثر بها ويؤثر فيها، وإذا كانت هذه الحضارة حية فإنها تتصف بصفات الحياة وعلى رأسها النمو . غير أن الحضارات تفقد ما فيها من حيوية حين تقف عن النمو ، حين تجمد نظمها ، بالعزلة وجمود الطبقات الاجتماعية . وتتقدم الحضارة حين يعمل كل فرد فى المجتمع بحريته مفكراً فيما ينبغى أن تكون عليه صورة المستقبل ، متعاوناً مع غيره من الأفراد ، وينشأ من احتكاك الفكر بالفكر قوة اجتماعية عظيمة تأخذ بيد المجتمع إلى الأمام .

وقد رأينا أن جانباً من جوانب الفرد هو سلوكه الأخلاقى ، ورأينا كيف رد ديوى المشكلة الأخلاقية إلى المجتمع ، وإلى ما يسود فيه من نظم حضارية تصبغ الأخلاق صبغةً معينة .

---

(١) فى مجلة Survey, October, 1949. والثقافة اصطلاح حديث يؤخذ غالباً بمعنى الحضارة .

ويجمع الفرد فى نفسه جوانب أخرى لا تقل أهمية وخطراً عن الجانب الأخلاقى ، منها النزعة الدينية والفنية ، وهما نزعتان يمكن أن ننظر إليهما من جانب « الخبرة » أو من زاوية « الحضارة » .

وينبغى أن يكون مفهوماً من أول الأمر أن ديوى لا يفصل فى الفرد أى نشاط من ألوان النشاط السالفة الذكر . ولا عجب فهو واحدى فى مذهبه . وهو الذى ظل ينادى بأن الإنسان كائن طبيعى لا يمتاز عن أى كائن آخر إلا بوجود وظائف زودته الطبيعة بها وعليه أن يفسح لها المجال لتأدية عملها . وعلى رأس هذه الوظائف العقل والخيال ، وبهما تميز عن الحيوان . وسلوك الفرد منا موحد ، فلا يكون تارة عالما ، وتارة أخرى فاضلاوثالثة اجتماعياً . ورابعة متديناً . وخامسة فناناً إلى غير ذلك . ولكن سلوكه شيء واحد يصدر عن وجوده فى المجتمع الذى يعيش فيه . وعما اكتسبه من علم ، وتذوقه من جمال . وتدين به من صلة .

الدين والتدين

وكان لا بد أن يتعرض ديوى للدين من خلال مذهبه الذى يصفه بعضهم بأنها « مذهب طبيعى [١] » naturalism ، أو الدهرية كما سماها جمال الدين الأفغانى ، فلا غرابة أن يهاجمه غلاة المتدينين ، وبخاصة الذين يعتمدون فى مذهبهم الدينى على سلطة الكنيسة . ولذلك « حاربت الكاثوليكية دائما المذهب الطبيعى »[٢] .

يفرق ديوى بين الدين والتدين (religion and the religious) . فالدين قوة عليا غير منظورة ، من قبيل الغيب . وما كان كذلك فلا سبيل لنا إلى معرفته ، وإنما نعرف فقط أشخاصاً متدينين ، لهم تجارب دينية . ويبدو فى سلوكهم

---

(١) انظر مثلا مقالة سنتيانا فى كتاب شيلب بعنوان Dewey's Naturalistic Metaphics وفيها يقول : « وفى الوقت نفسه هناك دافع آخر يسوق ديوى إلى المذهب الطبيعى ، فهو اللسان الناطق المخلص لروح العمل والتجربة والصناعة الحديثة » . ص ٢٤٥ . وفى استهلال كتاب « الخبرة والطبيعة » يصف ديوى فلسفته بأنها طبيعية .

(٢) من مقال فى مجلة The Educational Forum ، نوفمبر ١٩٥٣ ، بقلم David Holden

مظاهر خاصة من أداء شعائر وطقوس . أكثر من ذلك ، ليس لنا الحق أن نقول « الدين » فى صيغة المفرد ، لأن الموجود فى الواقع « أديان » كثيرة مختلفة .

والتدين ظاهرة اجتماعية خاضعة للثقافة أو الحضارة ، فكل إنسان يولد فى مجتمع له دين وله طقوس وكنيسة ، ولا ينضم الفرد إلى الكنيسة ، ولكنه يولد وينشأ فى جماعة لها وحدتها الاجتماعية ونظمها وتقاليدها . ويرمز إليها ويحتفل بها فى طقوس وعبادات وعقائد تصدر عن ديانة جماعية [١] . وليست هذه الفكرة جديدة ، فى المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله إن كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه . وقد جاء الإسلام ينعى على التقاليد ويدعو إلى النظر والتحرر . وكذلك فعل ديوى ، فعنده أن الأديان مثقلة بميراث من الطقوس والعقائد وبخاصة الغيبية ، ولكن تقدم العلوم فى العصر الحاضر يهيئ الجو للتحرر من القديم . وقولنا « الله » إما أن يعنى موجوداً خاصاً ، وإما أنه يدل على « وحدة جميع الغايات المثالية التى تثير فينا الرغبة والعمل »[٢] . فالله يمثل توحيد القيم المثالية . ومن الواضح أن ديوى يرفض قبول فكرة الإله المنفصل عن العالم ما دام يرفض جميع الثنائيات ، ولكنه يقبل فكرة الإله باعتبار أنه المثل العليا الذاتية للخبرة الإنسانية والمستمدة منها . وعنده أن التجربة الدينية حقيقة واقعة ، وأنها تعيد للنفس الأمن والسلام . والتجربة الدينية مستمدة من ثقافة المرء ومن جملة العقائد التى تلقاها . وليس ما يدعو إلى إنكار التجارب الدينية المتطرفة والتى تعرف بالتصوف ، فهى أحداث طبيعية لا شذوذ فيها وتقع عند بعض الناس فى أوقات معينة منتظمة كجزء من تيار الخبرة .

أما الدين الذى يدعو إليه ديوى فهو دين طبيعى ، دين الإنسانية . وقد

---

(١) Common Faith, p. 60. ينبغى أن نلاحظ أن ديوى يتحدث عن الدين المسيحى بوجه خاص ، لا عن الأديان عامة ، فالمسيحية تقوم على دعائم ثلاث هى الإيمان والطقوس والكنيسة . أما الإسلام فيقوم على دعامتين فقط هما الإيمان والطقوس ، أو الاعتقادات والعبادات .

(٢) المرجع السابق ص ٤٢ ، ٤٣ .

كان ديوى إنسانياً بكل معنى الكلمة ، وفلسفته إنسانية تشبه ما كان يدعو إليه شلر ، ولذلك سلكهما وليم جيمس فى سلك واحد ووصف مذهبهما « بالإنسانى » عندما تكلم عن برجماتية ديوى حين كان فى شيكاغو. وانظر إلى ديوى يختم كتابه « إيمان مشترك » حيث يقول : « نحن الذين نعيش الآن أجزاء من إنسانية تمتد جذورها إلى الماضى السحيق ، وهى إنسانية قد تفاعلت مع الطبيعة . إن الأمور العزيزة علينا فى الحضارة ليست من صنع أيدينا ، ولكنها موجودة ثمرة العرق والدموع للجماعة الإنسانية المتصلة ، والتى نكون حلقة من حلقاتها . ومهمتنا هى مسئولية حفظ تراث القيم الذى تلقيناه ، ونقله وتعديله ونشره ، حتى يتسنى لخلفنا أن يتسلمه أصلب عوداً وأكثر أمناً وأيسر تناولا وأعظم انتشاراً مما تلقيناه . وفى هذا تقوم جميع العناصر لإيمان دينى لن يقتصر على فرقة أو طبقة أو جنس . وقد كان مثل هذا الإيمان فى صميم القلوب الإيمان المشترك لبنى الإنسان . ويبقى اليوم أن ينتقل هذا الإيمان المشترك من السر إلى العلن ويتخذ سبيله إلى التحقيق » .

إله واحد ، ودين واحد ، وإيمان مشترك ، يتطور مع تطور الحياة . ولن يكون هذا التغيير فى الدين مضراً ، لأن التغيير يوضح مثلنا العليا ويجعلها أبعد من الوهم والخيال ، ويحررنا من عبء التفكير فى المثل الدينية كأنها شىء ثابت لا قوة له ولا نمو[1] .

وهذه الأفكار ليست جديدة علينا فى الشرق ، لأن الإسلام هو دين الإنسانية ، وهو الدين العام الذى يفسح المجال للتطور والنمو ويدعو إلى النظر العقلى وإلى التأمل والتفكر . وهو يمثل التطور الذى بلغته الأديان السابقة ، ويجمعها فى دين واحد ، كما قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » . غير أن الإسلام كما أنه دين إنسانى فهو أولا دين إلهى سماوى ، ولا بد أن يؤمن

(١) المرجع السابق ص ٥٧ .

obeikandl.com

المتدين به بالغيب. أما ديوى فالدين عنده إنسانى وليس إلهياً أومؤلهاً[١]. ويبدو أن هذه النظرة الإنسانية غير التأليهية للدين هى نظرة بعض البرجماتيين، ولعلها ترجع إلى طبيعة المنهج . ومع ذلك فهناك من كبار البرجماتيين من أخضع المنهج البرجماتى للنظرة التأليهية فى الدين ، وعلى رأس هؤلاء وليم جيمس .

التجربة الجمالية

يعالج ديوى التجربة الجمالية كما عالج التجربة الدينية ، فهما على السواء نابعان من اتصال النفس الإنسانية بالعالم الخارجى . فى حالة الشعور الجمالى ، أو الشعور الدينى « نكون كما لو كنا قد دخلنا عالماً وراء هذا العالم، وما هو إلا الحقيقة لعالمنا الذى نعيش فيه وتجرى فيه خبراتنا العادية . إننا نحمل خارج أنفسنا كى نجد أنفسنا . ولست أرى أى أساس نفسانى لمثل هذه الخصائص عن الخبرة سوى أن الأثر الفنى يعمل على تعميق وتوضيح ذلك الإحساس بوجود كل محيط ولا نهائى مما يصحب أى خبرة عادية. وعندئذ نشعر بهذا الكل وكأنه امتداد لأنفسنا »[٢] . والمقصود بالكل "whole" فى النص الذى أوردناه العالم بأسره ، بما فيه أنفسنا، على طريقة تفكير بارمنيدس مثلا .

وقد رأينا أن ديوى يلتمس حل المشكلة الدينية فى « المتدين » لا الدين : فيرد الأمر للتجربة الدينية . وليست هذه التجربة شيئاً مختلفاً أو متميزاً عن التجربة الجمالية أو الأخلاقية أو السياسية ، كما يزعم بعض المفكرين الذين يذهبون إلى أن التجربة الأخلاقية تمتاز بشىء يخصها ويصحبها هو الصداقة مثلا . فالتجربة الدينية شعور مباشر ، وهى الأساس الذى تضاف إليه العقائد

---

(١) John Childs, American Pragmatism, p. 328.
يقول ما نصه « فيما يختص بوجهة نظر ديوى الشخصية عن الدين ، فلا نزاع أنها إنسانية لا تأليهية » "Definitely humanistic, not theistic" وانظر الفصل كله عن البرجماتية والدين من صفحة ٣١٢ إلى ٣٣٥ .

(٢) Art as Experience, p. 195.

والمحور الذى تدور حوله النظم . ووجود التجربة الدينية يدل على تغيير فى أنفسنا بإزاء العالم ، ينبئ عن اتجاه النفس بالاستسلام والخضوع ، كما يبعث فيها الأمن . ويلعب الخيال دوراً كبيراً فى ربط الذات الفردية بالكون . بل إن شعور الفرد بنفسه أنها كل the whole self هو ثمرة لهذا الخيال . « والنفس تتجه دائما نحو شيء وراءها ، وبذلك يصبح توحيدها ذاته قائما على فكرة توحيد المناظر المتتابعة فى العالم فى كل متوهم هو الذى نسميه الكون »[١] .

فالذى يجمع بين التجربة الدينية والتجربة الجمالية هو أن كليهما يصدران عن النفس بإزاء شيء خارجى ، ولكن فى حالة التجربة الدينية يحس المرء بشعور من الأمن والإجلال والاستسلام ، وفى حالة التجربة الجمالية يحس بشعور من الغبطة والمتعة والارتياح . والجديد عند ديوى أنه لا يرجع ارتياح النظر أو السمع إلى إدراك العين أو الأذن ، بل إلى نشاط الكائن بأسره بإزاء ما يراه أو يسمعه ، وهو نشاط ينبه جميع الوظائف الحيوية ويصلها بالماضى وبالبيئة الحاضرة وبما يستقبل من سلوك. وهذه هى النظرية التى طبقها فى ميدان التربية وفى ميدان التفكير وفى ميدان الأخلاق ، نعنى أن الإنسان كائن حى يتفاعل فى بيئة حضارية معينة ، يؤثر فيها ويتأثر بها ، ويحصل له من هذه الصلة بالبيئة « خبرة » متواصلة . وجميع النظريات عن الفن والجمال التى تحاول فصل موضوعات الفن عن الخبرة الإنسانية ستفشل حتما فى الوصول إلى تفسير صحيح عن سر الإعجاب بالجميل . وأنه لكى نفهم الجمال فى صوره النهائية المسلم بها علينا أن نبدأ بالمشاعر الأولية ، فى صورها الخام ، فى الحوادث والمناظر التى تلفت نظر الإنسان وتسترعى سمعه ، مثيرة اهتمامه ومحققة متعته حين ينظر ويسمع . هذه المناظر التى تستوقف الجماهير : سيارة الحريق وهى تندفع فى سرعة ؛ الآلات التى تحفر الآبار العميقة فى الأرض . . . إن منابع الفن فى الخبرة الإنسانية

---

(١) من كتاب « إيمان مشترك » نقلا عن
Ratner, The Intelligence in the Modern World p. 1016.

يتعلمها ذلك الذى يلمح رشاقة لاعب الكرة وكيف تؤثر فى جمهور المتفرجين ؛ ويلحظ بهجة الزوجة فى العناية بزرعها ، واهتمام زوجها بزكاء الخضرة فى بستان الدار ؛ وحماسة محرك النار وهو ينظر إلى الحطب الملتهب فى المدفأة ، وملاحظته اللهب المتوقد والفحم الذى يطقطق . ولو أنك سألت أى شخص من هؤلاء عن سبب فعله لابتدع لك إجابات معقولة . الرجل الذى كان يقلب الحطب المحترق سيقول : إنى أفعل ذلك لأحصل على نار أكثر اشتعالا ، ولكنه لا يقل افتتاناً بمأساة التغير الملونة تجرى أمام ناظريه ويشترك بخياله فيها ، فهو لا يقف مجرد متفرج . . . » [١]

وإذا كان الفن يقوم على الإيقاع والائتلاف والانتظام والترتيب والتوازن ، فهذه المعانى كلها إنما نشأت من وجود الكائن الحى فى البيئة ، إنه توازن بين طاقات الكائن الحى وبين الظروف التى يعيش فيها . وعند الإنسان يضاف إلى التوحيد بينه وبين البيئة الشعور بهذا التوحيد ، وإذا افتقد هذه الوحدة ظهر عنده انفعال خاص ، وإذا تحققت ظهر انفعال آخر . وعمل الفنان — فى التصوير أو النحت أو الموسيقى أو الشعر وغير ذلك — هو إبراز ما يحس به فى الخبرة إحساساً موحداً شاملا فى ثوب من الفن . ولذلك كان موقف الفنان خلاف موقف العالم ، فالأول يعنى بالتوحيد والثانى يهتم بالتحليل والوقوف على حل المسائل ومعرفة أصولها . وكلاهما يصدر عن الخبرة ، غير أن كلا منهما يتجه بها وجهة معينة . فالفنان يفكر فى مشكلاته التى تعرض له أثناء عمله ، غير أن تفكيره سرعان ما يتجسد فى الموضوع الذى يبرز فيه فنه . أما العالم فلأن الغرض الذى يسعى إليه بعيد فإنه يشتغل مستعيناً بالرموز والألفاظ والعلامات الرياضية . وأما الفنان فإنه يشتغل بوساطة أمور كيفية ، كاللون أو الصوت ، وغرضه قريب ولذلك يضع هذه الكيفيات مباشرة فى موضوعه .

حقًّا العالم الذى نعيش فيه عالم تغير متصل وجريان دائم ، ولكن هناك

---

(١) Art as Experience p. 4-5.

إيقاع منتظم خلال هذا التغير والجريان ، أشبه بالمد والجزر ، وينشأ النظام من إدراك الحدود بين هذه الأطراف إن فى الزمان أو المكان ، بحيث توجد نماذج لهذا النظام ، كالحال فى أمواج البحر ، وتموجات الرمال الناشئة من هبوب الرياح . ويتميز الإنسان بأنه يشعر بهذه العلاقات ، من الترتيب والتعاقب والانتظام وغير ذلك مما هو موجود فى الطبيعة . والفنون هى الدليل المحسوس على استخدام الإنسان المواد والطاقات الطبيعية ليوسع آفاق حياته ، وهو إنما يفعل ذلك بما يتفق مع طبيعته ، فيعيد عن وعى وفى مستوى معقول من المعانى وحدة الحس والحاجات الباطنة ، وحدة الدوافع والسلوك مما يتميز به الإنسان من جهة أنه كائن حى .

وهكذا يرد ديوى ما فى الفنون الجميلة من انتظام واتزان وتناسب لا إلى علاقات هندسية ثابتة فإن هذه الأشياء منفصلة عنا ، بل إلى ما فينا من طاقة حيوية ، ومن قوى فعالة يلبسها الفنان ثوباً من الشكل المنتظم الجديد[١] . كل أثر فنى يتركب من مادة وصورة form ، إنه مادة مصوّرة بطريقة تجعلها معبرة . مادة الفن تنتمى إلى العالم الخارجى على حين تنتمى الصورة للنفس . ولكن يجب ألا نفصل بين المادة والصورة كما فعل معظم المفكرين والفلاسفة حتى حسبوا أن الصورة شىء منفصل عن المادة تفرض عليها فرضاً ، أو تضاف إليها ، أو أن الصورة أشبه بالقالب الجاهز المعد لصب المادة فيه . على العكس إنهما يسيران معاً ، ينموان جنباً إلى جنب ، فى قلب الخبرة ، ويتطوران بحيث يتلاءم الأثر الفنى فى تمامه مع البيئة ، وأن يعبر عن معنى ويرمز له . وهذا يفسر لنا تغير الفنون من زمان إلى زمان ومن عصر إلى عصر ، فى مادتها وفى صورتها . بل يفسر تغير الفن وتطوره عند الفرد الواحد ، وفى انتقاله من موضع إلى موضع . فأنت تضع بعض الزهور فى مكان من المنزل فيكون لها معنى وبهجة ورونقا ،

---

(١) يعرف ديوى الصورة على النحو الآتى : « هى عمل القوى التى تحمل الخبرة بحادثة وموضوع ومنظر وموقف إلى تمامها الموحد الخاص بها » . Art as Experience, p. 137. — ثم يضيف إلى ذلك أن الصلة بين المادة والصورة باطنة وليست مفروضة من خارج .

وتضعها هى ذاتها فى مكان آخر فتفقد معناها ورونقها وجمالها . ويُروى عن ماتيس Matisse قوله : « عندما يتم فنان رسماً يكون أشبه بالوليد الجديد ، ويحتاج الفنان نفسه إلى وقت ليفهمه ، إذ يجب أن يعيش الفنان مع الرسم كما نعيش مع الوليد إذا كان لا بد أن نفهم معناه » [١] .

صفوة القول : فكرة الفن أنه أشبه بالكائن الحى تسرى من أول صفحات الكتاب « الفن كخبرة » إلى آخره ، وبهذه النظرية يفسر ديوى جميع المشكلات التى تواجه علم الجمال أو الاستطيقا .

والفنون لغة نعبر بها عما نحس به ، أو قل إنها لغات كثيرة ما دام لكل فن أداته الملائمة ليكون وسيلة للاتصال بين الناس . ولكنه لغة ليست كلغة الكلام التى نستخدم فيها الألفاظ سبيلا للتفاهم والاتصال . غير أن كل أداة تحكى شيئاً لا يمكن أن تؤديه تماماً أى أداة أخرى . وقد جعلت حاجات الحياة اليومية أهمية خاصة لإحدى وسائل التفاهم وهى الكلام . ودخل فى وهم الكثيرين أن المعانى المودعة فى البناء والنحت والرسم والموسيقى يمكن أن تترجمها الألفاظ دون أن نخسر شيئا أو نخسر الشىء القليل ، وهذا غير صحيح لأن كل فن ينطق باصطلاحات لا يمكن أن يعبر عنها أى فن آخر .

وتوجد اللغة حين يتكلمها شخص ويصغى إليها شخص آخر ، فالسامع شريك لا غنى عنه . كذلك الأثر الفنى لا يكون كاملا إلا حين يدخل فى خبرة المتذوقين له ، وهم غير الفنان الذى ابتدعه ، وبذلك يكون الأثر الفنى هو الصلة بين الفنان وبين الجمهور . وهكذا يصبح الفن إنسانياً ، أى اجتماعياً . فالتجربة الجمالية مظهر لحياة الحضارة وتسجيل لها واحتفال بها ، وهى سبيل إلى ترقية نموها ، كما أنها الكلمة الأخيرة التى تقال عن صفة الحضارة ما هى . وهناك عناصر عابرة وأخرى باقية فى كل حضارة . والقوى الباقية هى وظائف لكثرة كثيرة من الأحداث الجارية التى تنتظم فى معان تكون العقول . والفن هو القوة

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٧ .

العظيمة التى تحقق هذا الترابط الاجتماعى . فالأفراد يختفون من مسرح الحياة مع فنائهم ، هم وعقولهم ، ولكن الآثار التى تحمل المعانى تبقى ، وتصبح جزءاً من البيئة ، والتفاعل مع هذه المرحلة من البيئة هو محور الاتصال فى حياة الحضارة وأوامر الدين وسلطة القانون إنما تكون نافذة حين تلبس من الفخامة والهيبة والعظمة رداء هو من عمل الخيال . وإذا كانت الفنون الاجتماعية أكثر من مجرد أشكال خارجية موحدة للسلوك فإنما ذلك بسبب أنها مغمورة بالقصة والمعنى المنقول . وكل فن فهو بشكل ما واسطة هذا النقل[١] . فعظمة الإغريق والرومان تلخص حضارتيهما . ومصر القديمة هى آثارها ومعابدها وآدابها . فالفنون هى المظهر المعبر عن حضارات الأمم . وهو تعبير يتمثل فيه حرية الفنان ، وإبداعه ، وإنسانيته . وفى العصر الصناعى الذى نعيش فيه اليوم يتجه الفن اتجاها يتلاءم مع التصنيع وإنتاج الآلات ، كما يتلاءم مع التقدم الذى أحرزه العلم فى شتى الميادين . وهكذا نجد الفنون فى البناء والرسم والموسيقى والأدب تتغير تغيراً سريعاً يجارى التغير السريع فى شكل الحضارة الراهنة .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢٦ .